التاريخ: 15-05-1997 رقم العدد: 19742 الصفحة: 1 العمود: 2

العنوان: خواطر ايرانية

الكاتب: سلامة غسان

في طهران، ينتابك شعور مماثل لما قد تشعر به في القاهرة او في اسطنبول: انت في مدينة كبرى. وتصبح الحاضرة كبرى عندما تفقد مركزها التاريخي، او بالاحرى حين تتعدد مراكزها لدرجة ان يلغي واحدها الآخر، لأن المدينة صارت مجموعة من المدن المتجاورة، المتلاصقة او المتداخلة. وعندما تقارب المدينة الملايين العشرة وتتجاوزها، يطبق حجمها على الصدر اجمالاً فتبحث في طياتها عن مصادر الرقة. الخضار المنتشر في جادات عاصمة ايران يعوّض فيها عن فقدانها للنيل يجتازها كما في عاصمة المعزّ، او للبوسفور يقسمها كما في عاصمة بني عثمان. وما تعدّد النوافير المائية في الساحات الطهرانية الاّ بدلاً نسبياً لنهر كان لو وُجد اضاف اليها بعض الرقة. ولكنها، على عكس اصفهان، عاصمة الصفويين، المتهدّلة بغنج على ضفاف زاينده رود، نهرها الواسع الحوض، ذي الجسور الجميلة، أعدمت نهراً يخترقها، فازدادت آسيوية. والاصرار على التسميات سمة اساسية في الانظمة الايديولوجية. ويحكم ايران اليوم قدر كبير من الشعور القومي الذي لم تضعف كبرياؤه بل بدت لي في ازدياد عند ابناء الثورة الخمينية الذين في الحكم، كما عند اولئك الايرانيين الذين يضعون مسافة ما بين شخصهم والنظام. بل ان من يبتعد منهم عن النظام قليلاً يلجأ بصورة تلقائية الى القومية الايرانية المتشددة لحماية نفسه من تهم خطيرة كالليبرالية (وهي ليست هنا محبّبة)، او التغرّب، وهو مذموم رسمياً كنوع ملطّف من الخيانة الثقافية ان لم يكن الوطنية، رغم تعدد الاعلانات في الصحف وعلى الاعمدة لمدارس خصوصية، نهارية وليلية، لتعليم اللغة الانكليزية، وليس هذا اقل التناقضات التي تلمسها في ايران المعاصرة. والتسميات الجديدة عنوان الانظمة الايديولوجية. كبرى جادات طهران تحولت من "بهلوي" الى "ولي عصر"، اما "ميدان الخميني" فهو في قلب جنوب العاصمة الشعبي مشيراً الى ولاء النظام لقاعدته من "المستضعفين". ومن الجادات الكبرى، شوارع باسماء كبار الثورة، من امثال المفكر الاسلامي الكبير المتوفى عام 1977 عشية انتصار بعض افكاره، الدكتور علي شريعتي، او العالم الواسع الرؤيا والمستقل الرأي الذي توفي غداتها، آية الله الطالقاني. ولشهدائها شوارع كثيرة وساحات كبيرة من آية الله بهشتي الذي اغتيل الى مصطفى شمران الذي كان وزيراً للدفاع بعد سنوات طوال في لبنان وسوريا الى جواد باهونار الذي ترأس الحكومة قبل ان تغتاله المعارضة. ويسري قانون التسمية ايضاً على سياسة طهران العربية بحيث لا يبقى للعابر مجال للتساؤل حول افضليات النظام الايراني في الساحة العربية. فبالاضافة الى رموز عراقية ومصرية وفلسطينية، قد يقف اللبنانيون امام لوحة كبرى تمثّل "الشهيد عباس الموسوي"، قائد "حزب الله "السابق بالقرب من ساحة فلسطين. لكن حزم الربط بين السياسات والتسميات يبقى في الارجح دون رغبة الحكّام. فإن انت اخطأت واعتمدت على خريطة للعاصمة قديمة، فذكرت اسماً لشارع من زمان ما قبل الثورة، فإن سائق التاكسي يأخذك اليه دون تردد... ولا تعليق. وتنافس التسميات على اهتمامك مظاهر اخرى أهمها اليوم تلك الاعلام السود المرتفعة على جدران المؤسسات الرسمية، واللافتات الطويلة على مداخل الوزارات كما على سطوح بعض المحلات التجارية وكلّها تذكّر المارة بأننا دخلنا شهر محرّم وبأن مجالس التعزية بالحسين متعددة، وان عاشوراء على الابواب. في محرّم النساء على سواد كما في الشهور الاخرى من العام الايماني، وبعض الرجال ايضاً، جلّهم من الشباب، يلبسون القمصان السوداء ايضاً تعبيراً عن انتماء عميق. لمَ الانتماء؟ لمذهب جعل من الحسين سيّد الشهداء وعظيمهم ولا شك انه ايضاً لوطن، لقوم، لأمة جعلت من مذهب معيّن دينها الرسمي لأربعة قرون خلت، وتبنته، وتماهت معه لدرجة يصعب معها فك الرباط بين الديني والوطني لأي مراقب او مشترك. ويعود هذا التماهي لزمن قديم ولا شك، فالمذهب كان دين الدولة في الدستور الايراني الاول في مطلع القرن، وما غيّر فيه الشاهان البهلويان شيئاً مبدئياً ولو انهما حاربا دعاته المتشددين بين الائمة. واتت الثورة لتجعل من ذاك التماهي شبه التلقائي قانوناً ومسلكاً. فإن اعترض البعض فليس على مبدأ ذلك التماهي، وانما على استعماله المنهجي تشريعاً للسلطة القائمة ومبرراً لوجودها بدل استمراره، كما في العهود السابقة، نوعاً من الثروة الوطنية المفتوحة لجميع الناس. وتتنافس ايضاً على اهتمام العابر للمدن الايرانية، الى جانب التسميات المسيّسة باصرار، واعلام محرّم السوداء، صور المرشحين للانتخابات الرئاسية التي ستجرى بعد ايام، وهم اربعة: ثلاثة معممين: ناطق نوري (رئيس المجلس حالياً) وآية الله خاتمي (وكان وزيراً للارشاد في السابق) وري شهري (الذي شغل منصب الداخلية لفترة من الزمن) وهناك قاض مدني قبل ايضاً ترشيحه ويسود الاعتقاد انه لم يكن من حظ لهذا القاضي بدخول جنة المرشحين الا لكي يقال ان المعركة ليست محصورة برجال الدين دون غيرهم من الناس. ولم يقبل ترشيح احدى بنات آية الله الطالقاني التي نزلت الى الساحة، حسب تصريح لها، لارغام النظام على تحديد معنى كلمة "رجال" الواردة في احدى مواد الدستور وهي تريد في الواقع ان يحسم الخبراء امرهم ويعتمدوا قواعد اللغة الفارسية حيث لا مؤنث ولا مذكر كي يعنى "برجال"، مرشحين من كلا الجنسين، فتفتح رئاسة الجمهورية امام السيدات. قلت "معركة" وقد أكون اصبت او اخطأت، والارجح في الواقع ان الامر في منزلة بين المنزلتين. فمن جانب ترى اصطفافا حقيقياً حول ابرز المرشحين وهما ناطق نوري المنعوت اجمالاً باليمين المحافظ، وخاتمي الذي يوصف اجمالاً بالراديكالية. ولكن النقاش مع المثقفين الايرانيين، وهم يميلون اجمالاً لخاتمي، واحياناً بحماسة، يحملك للاعتقاد ان هذه المفردات لا تنطبق فعلاً على الواقع. قد يكون الاول محافظاً ولكن الثاني ليس ليبرالياً. وقد يكون الأول اقرب لتجار البازار ولعلماء قم ولكن الثاني ليس بعيداً عن تيار الرئيس رفسنجاني كما تحوّل وتمحور بعد انتخابات السنة الماضية النيابية. وقد يكون الاستنتاج ان ناطق نوري يمثل امتداداً طبيعياً للسلطة القائمة في شكلها الحالي، بتوازناتها الهشة منذ اربع او خمس سنوات، وقد يكون خاتمي بالنهاية نقطة تجمّع لفئات مختلفة جداً تريد تعديل تلك التوازنات دون ان تكون متفقة على ناتجها المنتظر. لذا يبدو ناطق نوري استمرارياً وخاتمي تغييرياً على ما في صور الاول من بشاشة الواثق بالفوز وما في صور الثاني من وسامة الساعي اليه. ولكنك لن تلمس حماسة شعبية ولن تشعر بارتفاع حرارة المنافسة رغم قرب موعد الاختيار. ربما لأن الناس لا ترى امكاناً فعلياً للتغيير خلال ذاك الانتخاب. وهل هو في الواقع اختيار حر عندما ترى "مجلس الخبراء" المخول دستورياً قبول الترشيحات وقد رفض اكثر من مئتي ترشيح ليقبل فقط اربعة منها هي لرموز متنوعة من الناس يجمعهم في النهاية ولاء متساو للنظام القائم؟ هو فعلاً اقل بكثير من تعدّد مفتوح، من تنافس حر، ولكنه ولاشك اكثر من مجرّد تعيين. باب مشرّع نصفه على قدر من الحرية، ومع مرور الايام هنا، وتعدد النقاشات، تقتنع بان ربعه مفتوح فقط او ربما الثلث وليس اكثر. ذلك ان النظام قائم وبدا لي قوياً او انه يبدو في الاقل بعيداً عن التصورات الغربية القائلة بدخوله "مرحلة بريجنيقية" اي مرحلة الهرم المتسارع السابقة للسقوط صحيح ان اهمية اختيار الرئيس نسبية بعد رفض الترشيحات الخارجة عن دائرة صغيرة محددة. صحيح ايضاً ان الشخص هنا اهم من المنصب: فعندما كان رفسنجاني رئيسا للمجلس كان مقتدراً الى حد هائل، وهو بقي على قدرته عندما اصبح رئيساً للجمهورية وسيبقى ولا شك لاعباً خطيراً داخل النظام كرئس "لهيئة تشخيص مصالحه". صحيح ايضاً ان المنصب الاساس هو الذي يحتله مرشد الثورة خامنئي وله في التركيبة عيون وادوات .صحيح ايضاً انك تشعر منذ وصولك الى طهران بتعدد مراكز القوى ومواقع القرار وتنافسها حتى

الثمالة. وصحيح ايضاً انك تشعر بالدوخان لكثرة عدد اللجان التقريرية والاستشارية والتنفيذية من "خبراء" و"امناء على الدستور" و"شورى "و"تقييم عمل النظام" وما شابه، مما دفع مراقباً محلياً الى القول ان النظام الايراني مبني على مبدأ تعدد الجزر، كل منها تراقب الاخرى وتتنافس معها. ولا شيء يشير الى ان الانتخابات الرئاسية المقبلة ستؤدي الى مزيد من مركزة السلطة في موقع واحد او في مؤسسة دون غيرها .وقد ينتاب بعضهم حنين للسلطة الواحدة المركزية الواضحة كما كانت الحال ايام الشاه او كما هي الحال في غير بلد عربي. ولكنه في الارجح حنين في غير مكانه لأن الحيوية والتعددية الناتجتين عن هذه التركيبة السياسية الفريدة تعوّضان بعض الشيء من انعدام التنسيق وعن الفوضى الادارية وعن تلاشي القرار الا في الحالات الاستثنائية حيث تستجمع الجزر المتباعدة شيئاً من وحدة الكلمة. ثم ان للنظام جيلاً من الشباب يعمل بجد وجهد على بناء دولته في مختلف الادارات شبان نشطون لا تنقصهم الحماسة لوطنهم ولثورتهم، وحتى لو كانت كفاءتهم موضع تساؤل. قد يشار لهذا او لذاك بأنه حصل على موقع لان له بين العمائم اقرباء، او لأنه تتلمذ على مجتهد نافذ، ولكن سبل الحصول على موقع لا تخفف من حماسة الحاصل عليه، بهدف ملئه، وتعزيزه، والقيام بواجباته. كثيرون في الهامش يشككون، ولكن مزيج الوطن والمذهب ليس قريبا الى زوال، فهو ما زال، في بعض اشكاله، على نضارته الثورية السابقة، وله في الاجيال الشابة من قد يموت دفاعاً عنه خصوصاً اذا استطاعت السلطة ان تترك للافراد وللجماعات ان يقوم كل واحد منهم بصياغة ذاك المزيج الايديولوجي وفق معاييره الذاتية المفضّلة. والنساء في قلب هذه الصياغة المجتمعية الدائمة والمفتوحة على احتمالات كثيرة. فهن في كل مكان: في دائرة الجمارك يفتشن حقائب الواصلين الى المطار، في المحال التجارية منفردات اوفي مجموعات نسوية متراصة، في الادارات العامة (ولكن ليس في المواقع العليا)، في مجلس النواب عشرات، وفي الشوارع والساحات والمساجد متجلببات بالسواد كلهن (انما مع تنوع في ابراز المحاسن القليلة الظهور، متزايد على ما قيل وذكر مراراً) ولكن على حيوية دائمة، متنقلات، مطالبات، معبّرات، وكأنهن المتحولات بينما يسعى الرجال الى شيء من ثبات. فوحدة اللباس المفروضة عليهن لا تعني، فيما بدا لي، سجناً بل دافعاً للتحرك وللتعبير وكأنهن خميرة جاهزة للتغيير وقد اتكئن على رصيدهن في الثورة وخلال الحرب مع العراق (وهو رصيد كبير في استمرار المجتمع) لمنع الرجال من تحويل العباءة اللواتي ترتدين الى نوع من الحجر. ولكن استحالة التحادث معهن تمنع تصور اي تغيير تسعين اليه. غير ان انطباعك يزداد، برؤيتهن، ومن خلال ظواهر اخرى كالتصاوير الجدرانية، وكألوان القبب واشكالها، وكالفوارق الشاسعة بين لون الريف الباهت والوان الحواضر البارزة، وصدى حروف اللغة وحركاتها وطعم الخبز المسمسم والارز المفلفل، بان بلاد فارس هي، كما تشير الخريطة فعلاً، في موقع وسيط بين بلاد العرب وبلاد الهند. فهذا شكل او صوت او مذاق يذكّرك بالشام والعراق، وذاك لون او صدى او طعم يعيدك الى ذكرياتك الاسيوية في الهند والسند والصين. وتعتز ايران فعلاً بهذا الموقع الوسيط بل تبالغ اجمالاً في التعبير عن أهميته وشأنه .وتغادر طهران وانت تقول ان في موقع ايران وفي تاريخها الطويل كما في ثورتها الاخيرة ما يسمح لها بقدر ما من هذه الكبرياء المنتفضة فجأة بعد تواضع ظاهر. لكن كلام طهران في الاجمال يبدو وكأنه اكبر باشواط من واقع امكاناتها، فتعود وفيك بعض من خوف قديم منها وكثير من خوف جديد عليها.